ظهور الاتصال كموضوع للعلم

الاتصال حاضر في نشاطاتنا الانسانية بل هي الاتصال في حد ذاته لأن الاتصال له اهمية كبيرة في الوجود الانساني وهو ما سمح عموما بسهولة فهم اهتمام الانسان بجدية بالظاهرة الاتصالية وتساؤلاته عنها. ولكن قبول الاتصال كعلم لم يحدث الا بعد آلاف السنين من الممارسة للنشاط الاتصالي ولم تعترف به كتخصص قائم بذاته الا منذ وقت قصير، حتى ان أساتذة وأقسام علوم الاتصال تبدو شابة مقارنة بالتخصصات الاخرى .

ويبدو ان الدراسات الأمريكية التي تلت الحرب العالمية الثانية هي من بدأت الاهتمام بدراسات الاعلام والاتصال مستعيرة من ميادين أخرى مقاربات وأدوات البحث مثل علم النفس وعلم الاجتماع .

ولا يفوتنا أن اليونان كان لهم باع في ابراز أهمية الاتصال من خلال التأكيد على مهارات الخطيب ولغته .

العصور القديمة

يمكن تبيان اهتمام اليونان بالاتصال من خلال مصطلح الخطابة أو فن الخطاب العمومي حيث ارتكز تفكيرهم على مستويين :

أولا: التأمل النظري والفلسفي حول تنظيم الظاهرة الاتصالية (اكتساب ومعالجة المعلومة)

ثانيا : اقتراح مجموعة من الاجراءات المنظمة لممارسة الفن الخطابي ، هذا الانشغال الذي يرتكز أساسا على اهمية الخطاب في التسيير السوسيو سياسي .ففي اليونان كانت الأجورا (الساحة العامة) فضاء تناقش فيه القضايا العامة لمدينة أثينا , ومن هناك تأسست مصطلحات تسيير المدينة والديموقراطية وسلطة الشعب والجمهورية وهي بالمعنى اليوناني (الشيء العام) . وفي اليونان أيضا راج الاهتمام بفن الخطابة وأن تكون مقنعا وكيف تكون .

وورث الرومان هذه الوظيفة القوية للكلمة العمومية وظل ذلك قائما حتى القرن الاول بعد الميلاد , وخلال هذا القرن وما تلاه تقلص تسيير السياسة وتجمع في قبضة شخص واحد وهيمن الجيش والجواسيس و اصبح المواطنون خاضعين واحتكرت المعلومة وارسلت بطريقة خطية او نازلة بمفهوم الاتصال التنظيمي باتجاه الشعب المقهور .

من القرون الوسطى الى العصر الحديث

ان سقوط الامبراطورية الرومانية بفعل الضعف الحربي لم يسمح بإقامة المشروع والكلمة ولم يعد لها وجود الا لدى الفلاسفة والمستشارين، ورغم ظهور الثورة الفرنسية وظهور الجمهوريات الغربية الحديثة وظهور الثورة الصناعية والرأسمال وظهور علاقات العمل لم تعد الأجورا من جديد .

ما بعد الحرب

في نهاية الأربعينات توجهت مختلف البحوث والفروع في العلوم الانسانية والاجتماعية الى دراسة ظاهرة الاتصال. لأن انبهارا ملحوظا بوسائل الاعلام جعل الباحثين يلتفون حول الدراسات الاعلامية .

ظهور الاتصال الجماهيري

تاريخيا تعود ظاهرة الاتصال الجماهيري الى أوروبا منذ الجازيتا خلال القرن 17 م وكان يجب الانتظار حتى القرن التاسع عشر وبداية القرة العشرين لتنتشر هذه الظاهرة وتأخذ حيزا كبيرا في التفاعلات السوسيو ثقافية بفعل التصنيع والهجرة نحو المدن . فنزوح المزارعين نحو الاقاليم الصناعية جعلتهم يتجمعون في مناطق اعطت معنى للجمهرة واصبحت مستهدفة لتسويق الصحف (الكثافة السكانية) مثل لندن وباريس . كما ان مطبعة جوتنبرج أحدثت ثورة في اعادة انتاج الكتاب (الذي كان منسوخا) والانتشار الجماهيري له ثم تطور الصحافة المكتوبة والادب وظهور الصورة والسينما والأحداث المصورة وهوليوود ديزني والراديو والتلفزيون والفيديو .....الخ وأصبحت وسائل الاتصال سمة ثقافية لمجتمعاتنا ومؤثرة في السير التاريخي للأحداث (وتر غايت ، سقوط شاه ايران عنف الشرطة في براغ سبتمبر 1989)

السياسات الليبرالية

لقد أصبحت الحشود المتجمعة في الطرقات او وراء الشاشات قابلة للتعبئة (النقابات والاضرابات ، والانتخابات) . لقد وجد الاتصال مكانه في هذا السياق .

اقتصاد السوق

في سياق اقتصاد السوق والمؤسسات الحرة أصبح الجمهور مستهلكا أيضا ويستحوذ على قدرة الشراء . هذا السياق الجديد فرض الخطاب الاتصالي وفنونه (الاشهار،اللوحات الاشهارية في الطرقات، داخل الميتر والأتوبيس وفي الجرائد و المحلات). كل هذا للاقناع بالنشاط الكبير للاتصال .

3 _ الظهور الجديد لعلوم الاعلام والاتصال وتطورها

ان ذلك الفارق الذي بات واضحا بين أقلية مهيمنة وحاكمة واغلبية خاضعة مع التطور القوي للدعائم التكنولوجية والوسائل اعاد الاعتبار على المستوى الاجتماعي لأهمية الاتصال والمشاركة ومنه غزارة البحوث في ميدان الاعلام والاتصال.

من هذه البحوث ما تم انجازه في أربعينيات القرن العشرين وبدايات السبعينات ، فمنها ما كان نتاج التطور المذهل لوسائل الاتصال الجماهيري والانبهار به فانكب البعض على التنظير في المفهوم (العملية الاتصالية) لكن هذه البدايات اختزلت الاتصال في اتجاه أحادي متجاهلة خصوصيات الاتصال الانساني فنظرت اليه نظرة ميكانيكية امتدت الى اعتبار الجماهير قطعان يمكن توجيهها كما نشاء(نموذج لازويل) . وهو ما تجسد في الحملات الانتخابية (الدعاية) .

هذه المقاربات عانت من نفس العائق وهو حصر النشاط الانساني في مجرد نقل بسيط وميكانيكي لمحتوى ظاهري بين مصدر يقرر ويسير عملية الارسال ومستقبل خاضع مسلوب الارادة .

هذا ما خلص اليه المحاورون للمعرفة الاتصالية في بداياتها (الاتصال الانساني لا يمكن ان يدرس ويفهم باستعارة تفسيرات المدرسة السلوكية المثير والاستجابة).

لا يمكن أن نكون شانونيين عندما يتعلق الأمر باتصال الفاعلين الاجتماعيين .

ان بحوث المرحلة الثانية (الاتصال مرحلة معقدة) راجت في الثمانينات اذ بدأت شيئا فشيئا تدرس فكرة أن الاتصال عملية معقدة ولعل من المحاولين في هذا المجال **روجرز وكينكيد** اللذين بينا في سبع نقاط الفروقات بين المقاربات التقليدية (الخطية) والمقاربات الحديثة التي تؤمن بفكرة (الشمولية والاختلافات).

_ الرؤية التقليدية تنظر الى الاتصال كانتقال احادي الخط من مرسل الى مستقبل (لكن الأرجح هو تصور دائري لعملية الاتصال يكون فيها القائمون بالاتصال مرسلين ومستقبلين في آن واحد)

_البحوث التقليدية تعطي للمصدر سلطة الارسال والتعديل

_تنظر المقاربة التقليدية للاتصال الى كل عنصر من العملية الاتصالية كموضوع فيزيقي معزول عن السياق الذي يتواجد فيه (كان من الاجدر الاعتراف بالسياق الاتصالي لأنه أساس الموقف التفاعلي) بمعنى ما وراء الاتصال.

_ تميل البحوث التقليدية للاتصال الى النظر الى الرسالة من الخارج متجاهلة الرهانات ونظائر اللغة (الصمت ،علامة الوقف، النغمات، النبرات والايماءات....) معنى ما وراء الاتصال.

_ تعتبر البحوث التقليدية الاقناع وظيفة جوهرية للاتصال متجاهلة ان للاتصال غاية وهي تحقيق الانسجام والتوافق بن المتصلين (فعل متقاسم ومشترك).

_ لم تأخذ البحوث التقليدية بعين الاعتبار التأثيرات السيكولوجية وتأثيرات السياق الاجتماعي.

_ تميل البحوث التقليدية للاتصال الى الاعتقاد في ميكانيكية العلاقة(السببية) وبالتالي رجع الصدى من جهة واحدة .كان من الأجدر أن نفكر في التغذية الراجعة وسببية متبادلة .

عززت هذه القراءة النقدية البحوث التي التفت حول التيار الفكري المسمى بالو ألتو التي من أهم أقطابها جريجوري باتسون . هذا التيار الذي نظر للعملية الاتصالية كسيرورة تشمل القائمين بالاتصال والمحتوى والعلاقة القائمة .

مثلا وتسلافيك أكد ان الاتصال لا يمكن تفاديه وأن العملية الاتصالية مستمرة ومتدفقة في الزمان والمكان لا نعرف لها بداية ولا نهاية وأن للاتصال مظهران الظاهر والباطن (ما وراء الاتصال) .

وتصور وينكين الاتصال من خلال نموذج الأركسترا الذي يبرز أن كل عنصر في العملية الاتصالية شريك في التفاعل وأن قنوات اتصالية مختلفة يشارك بها المتصل كفاعل اجتماعي بكلامه وبصمته وبنظرته وغيابه . فهو جزء من الاتصال تماما كالموسيقي في الأركسترا ، ولكن في هذا الجوق ليس هناك قائد. ولا يدرك المشارك في العملية الاتصالية أنه جزء من العملية الاتصالية ولا يدرك ذلك الا الباحث في علوم الاتصال والبارع في هذا المجال والمفكر بمنطق العملية الاتصالية المعقدة .

لقد وفد الى الاتصال السوسيولوجيون والمعالجون النفسانيون واللسانيون والأنثروبولوجيون والفلاسفة وعلماء النفس ، كل هؤلاء قدموا لعلوم الاعلام والاتصال معرفة نظرية وأدوات منهجية وتقعيدا مفهميا جعل من الاتصال تفكيرا استراتيجيا .

الفعل الاتصالي فعل صعب ومعقد وهذا للأسباب التالية:

_**الرسائل غالبا مبهمة** وغامضة فما نقوله يحمل غالبا معان مختلفة وتأويلاته عديدة ،وهو العائق الذي قد يعرقل العملية الاتصالية .

_**المستقبل ليس سلبيا** انه الدرس الثاني في الاتصال، المستقبل ليس مطيعا ومستجيبا بالمفهوم السلوكي . فكل البحوث بينت أن التعرض انتقائي . فلا يمكن أن يكون للمصدر والجماهير نفس بؤر الاهتمام والانشغالات (قدمت لكم أمثلة عن فيلم عمر المختار ومسلسل رجال العز وفيلم دورية من الشرق) . كل منا يتذكر مشهدا دون آخر بتفاصيل ومعان تختلف عن الآخر.

فالمتعرض ليس حياديا فهو ينتقي ويؤول (معالجة المعلومة)

_ **الشكل يطغى على المحتوى** درس آخر في الاتصال هو طغيان الشكل على المحتوى . مثلا نفس الرسالة (هل تريد التوقف عن التدخين) تدرك ادراكات مختلفة وتكون لها تغذيات رجعية مختلفة اذا ارسلت بأدب يكون لها معنى واذا أرسلت بابتسامة أيضا واذا رافقتها ايماءة ماكرة تأخذ طريقا آخر.

فنفس النص لا يدرك ادراكا متماثلا اذا قدم في مخطوط مشطوب وملطخ بالحبر أو طبع في جريدة رائدة . فالتقديم يؤثر على وزن الرسالة فقد تضيع كلمات ورسائل بسبب طرائق التقديم في حين تبرز كلمات أخرى اذا قدمت بفن واحترافية .

_ **الرهانات الخفية أو الضمنية للاتصال** هناك عامل رئيسي يجب أخذه بعين الاعتبار عندما نحلل الاتصال وهو الرهانات المختلفة التي يحتويها الاتصال (محتوى الرسائل) . ولا يمكن حصر الرهان الاتصالي في ارسال معلومة ، فقد يكون الرهان الدفاع عن الذات أو ابراز الوجود او بناء صورة والبحث عن التأثير في الآخر.

فالاتصالات الشخصية مرصوفة داخل علاقات القوة والطقوس والمعاهدات والتي لا تظهر غالبا . فالوعي بهذا العائق ضرورة في حد ذاتها ، الاتصال الجيد والاصغاء وفن التعبير نتعلمه تماما كما نتعلم الكتابة والقراءة والحساب .

الميادين العشر للبحث في الاتصال

_ الاتصال الشخصي

استراتيجيات الاقناع

تحليل الصورة

الصحافة بأنواعها

مكانة الاتصال في المجتمع

البينثقافي بمعنى العلاقة بين الهوية والاتصال

التمثلات والمعاني التي تبنيها الوسائط الجماهيرية(الأنثروبولوجيا اللسانيات والسيميولوجيا)

فهم الاتصال السياسي والفضاء العمومي

استخدامات التقنيات الجديدة

مجتمع المعلومات والاتصال عشر علوم اجتماعية تغذي هذا الحقل(علم الاجتماع التاريخ الجغرافية.....)